



رحلة التغيير

(093) سورة الضحى

خطبة جمعة

2025-06-27

سورية - دمشق

مسجد عبد الغني النابلسي

يا ربنا لك الحمد، ملء السماوات والأرض، وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، لا مانع لما أعطيت، ولا مُعطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، غنى كل فقير، وعز كل ذليل، وقوة كل ضعيف، ومقرع كل ملهوف، فكيف نفتقر في غناك، وكيف نضل في هدايتك، وكيف نذل في عزك، وكيف نضام في سلطانك، وكيف نخشى غيرك، والأمر كله إليك، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، أرسلته رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً، ليخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات، فجزاه الله عنا خير ما جزي نبياً عن أمته.

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، وعلى أصحاب سيدنا محمد، وعلى أزواج سيدنا محمد، وعلى ذرية سيدنا محمد، وسلم تسليماً كثيراً.

لا بُدَّ أن تهجر المكان الذي لا تستطيع عبادة الله تعالى فيه:

وبعد أيها الإخوة الكرام: لربما كنت في مجتمع تضعف فيه عن إقامة دينك وعبادة ربك، إما لوجود جهة قوية تمنعك، أو لانتشار المعاصي والآثام، التي بمجموعها تُضعفك عن الالتزام بأمر الله، إذاً لا بُدَّ أن تهجر هذا المكان فوراً، لأنَّ الله تعالى خلَقنا لعبادته، وما دام هذا المكان حال بيني وبين عبادة الله، فيجب ألا أبقى فيه أبداً.

قد يُعرض عليك مبلغ من حرام، أو يُعرض لك شهوة لا ترضي الله تعالى، فتقول بأعلى صوتك: معاذ الله، إني أخاف الله رب العالمين، هنيئاً لك فأنت مُهاجر، وفي الحديث:

{ المسلم من سَلِمَ المسلمونَ من لسانِهِ ويَدِهِ، والمُهاجرُ من هجر ما نهى الله عنه }

(أخرجه البخاري ومسلم)

ربما انتشرت المعاصي والآثام، وكثرت الفتن واختلطت أمور الناس، وهذا ما يُسمَّى بالهجر، ولكنك على الرغم من ذلك، بقيت مُتمسكاً بدينك، عابداً لربك، مُبارك لك فأنت مُهاجر إلى الله، وفي الحديث القدسي:

{ الْعِبَادَةُ فِي الْهَجْرِ كَهَجْرَةِ إِلَهِ }

(صحيح مسلم)

أن ينقضي عامٌ وأن يأتي عامٌ معنى ذلك أنَّ العُمُر يمضي:

أيها الإخوة الكرام: انقضى عامٌ هجري وجاء عامٌ هجري آخر، وما معنى أن ينقضي عامٌ وأن يأتي عامٌ؟ معنى ذلك أن العُمُر يمضي، وأنَّ لحظة المغادرة قد اقتربت، وكأنَّ مُنادياً يُنادي: يا عباد الله قد اقترب لقاء الله، فماذا أعددتُم له؟ هذا هو معنى مضي الأيام، هذا ما يستشعره المؤمن عندما يمضي يومٌ ويأتي آخر، أو يمضي شهرٌ ويأتي آخر، أو تمضي سنةٌ ويأتي أخرى، فنحن محكومون بالموت مع وقف التنفيذ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30)

(سورة الزمر)

وصدَّقَ الحسن البصري إذ عرَّفَ الإنسان فقال: < >.

فلو أنَّ فلاناً من الناس، له عند الله سبعون سنة وأربعه أشهر وخمسة أيام وأربع ساعات وعشر دقائق وثلاث ثوانٍ، هذا هو فلان، كلما انقضت ثانية نقص جزءٌ منه، لأنه قد اقترب من نهايته، من المغادرة من الدنيا إلى الآخرة، من انتهاء الامتحان إلى بدء الحساب والجزاء.

الهجرة فَرَّقَتْ بين الحق والباطل لذلك اعتمدها عمر رضي الله عنه للتاريخ الهجري:

أيها الإخوة الكرام: اجتمع الصحابة الكرام وعلى رأسهم خليفة المسلمين عُمر رضي الله عنه، لِيَتَّخِذُوا قراراً كيف يبدؤون التاريخ الإسلامي، قال بعضهم نُوِّخَ بمولده صلى الله عليه وسلم، وقال آخرون بل نُوِّخَ ببعته بداية البعثة النبوية، وقال ثالثٌ بل نُوِّخَ بوفاته فهو حدثٌ مهمٌ جداً، فاختلفت الآراء، فقال عُمر رضي الله عنه: الهجرة فَرَّقَتْ بين الحق والباطل فَأَرَّخُوا بها، واعتمد التاريخ الهجري إلى يومنا هذا مبدأً للتاريخ الإسلامي، لماذا؟ يُشير عُمر رضي الله عنه إلى أنَّ الهجرة ليست حدثاً عابراً، انقضى بانقضاء زمانه وظروفه، ولكنها حالةٌ مستمرة نحتاج دروسها في كل زمانٍ ومكان إلى يوم القيامة.

لم يختاروا مولده صلى الله عليه وسلم، ولا بعته، ولا وفاته، فهذه أحداثٌ ربَّانيةٌ صرفة، مَنْ الذي تدخَّلَ في يوم مولده صلى الله عليه وسلم؟ هذا ما أَرَادَهُ الله، وَمَنْ الذي فعل فعلاً فجاءت بعته؟ هذا قدر الله، وَمَنْ الذي ساهم في تحديد يوم وفاته؟ حاشا أن يساهم أحدٌ في تحديد وفاة إنسانٍ أو مولده.

أمَّا الهجرة فكانت حركةً، لم تكن حدثاً عابراً، كانت حركةً تركها الله تعالى للسُّنَنِ الكونية، أراد الله تعالى في الهجرة أن تكون وفق السُّنَنِ الكونية، أن تكون فعلاً بشرياً، لا شكَّ أنَّ كل أمرٍ في الوجود هو تقديرٌ من الله تعالى، لكن الله تعالى أراد في الهجرة أن يقوم البشر بحركةٍ، أن يبذلوا جُهداً، أن يدفعوا أذىً، أن يطلبوا خيراً، أن يفعلوا فعلاً، هكذا كانت الهجرة، فلذلك كان من فقه الصحابة وعلى رأسهم عُمر رضي الله عنهم أجمعين، أن يجعلوا الهجرة التي هي الحركة الحقيقية لتغيير الواقع، مبدأً للتاريخ الإسلامي.

الهجرة حركةٌ مدروسةٌ واعيةٌ لتغيير الواقع نحو الأفضل:

أيها الإخوة الكرام: الهجرة حركةٌ مدروسةٌ واعيةٌ لتغيير الواقع نحو الأفضل، هذه هي الهجرة في عمقها، الحياة أيُّها الكرام لا تقبل السكون، كل شيءٍ من حولنا يتغيَّر، والذي لا يُغيَّر يتراجع، لا يبقى في مكانه فحسب بل يفوته الركب، نحن في كل يوم نُغيَّر، نُغيَّر من حياتنا، نُغيَّر من أساليبها، التاجر الذي لا يُغيَّر تكسده بضاعته، وكل إنسانٍ لا يُغيَّر في أساليبه يُصبح من الماضي، فالحياة لا تقبل السكون هي تغيُّرٌ مُستمر، فلذلك كانت الهجرة حركةٌ مدروسةٌ واعيةٌ لتغيير الواقع نحو الأفضل، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَتَضَرَّعُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلَايَتِهِم مِّنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۚ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (72)

(سورة الأنفال)

(وَالَّذِينَ آمَنُوا) أي اعتقدوا، الإيمان اعتقاد، اعتقد آمن بالله، آمن بملأئكته، بكتبه، برسله، باليوم الآخر، بالقضاء، آمنوا فكرياً (وَلَمْ يُهَاجِرُوا) أي لم يتحركوا وفق إيمانهم، قال: (مَا لَكُمْ مِّنْ وَلَايَتِهِم مِّنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا) ليس لهم عليكم حقٌّ الولاء، لأنهم لم يتحركوا لنصرة دينهم، ليس في ديننا مؤمنٌ سكوني، يؤمن ويجلس، المؤمن يتحرَّك لنصرة دينه، لخدمة عباد الله تعالى، للقيام بما أمره الله تعالى به، يؤمن ويتحرَّك، فالهجرة هي الحركة الواعية التي نريدها من كل مسلمٍ، وليس فقط ما كان بين مكة و المدينة، يقول صلى الله عليه وسلم:

{ سُبِّلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْهَجْرَةِ، فَقَالَ: لَا هَجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيْتَةٌ، وَإِذَا اسْتَفْرِغْتُمْ قَاتِلُوا }

(صحيح مسلم)

ما معني أن يقوم إنسان اليوم فيجمع أغراضه وحمل زاده، ثم يترك مكة ويذهب إلى المدينة، أين الهجرة في الأمر؟! وقد بشر الله تعالى أن انتشر الإسلام، وأصبحت شعائره تُقام في مكة والمدينة، قال: (لَا هَجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَبَيْتَةٌ) الهجرة مُستمرّة، ولكن ليس بالانتقال من مكة إلى المدينة وإنما بالانتقال المُستمر من واقعٍ سيءٍ إلى واقعٍ أفضل، من معصيةٍ إلى طاعة، من سكونٍ إلى حركة، هذه هي الهجرة أيها الكرام، قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ الَّذِينَ تَوَقَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ
وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (97)

(سورة النساء)

ظلم النفس هو المعصية:

ظلمتم أنفسكم بمعصية الله لماذا؟ ظلم النفس هو المعصية، الإنسان ليس ضعيفاً لكنه يُستضعف، استضعفنا أعداؤنا، منعونا من شعائر الله، أو في عصرنا هذا وجد في مجتمع لا يمنعه أحدٌ من الصلاة، ولكن مجتمع فيه الفسق والفجور والاختلاط غير المُنضبط وتدار فيه الخمر، فلم يُهم إلى الصلاة لأن المجتمع استضعفه، لأن انتشار المعاصي والآثام جعله غير قادرٍ على القيام بأمر الله تعالى (قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ ۖ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا).

ما الذي أعده النبي صلى الله عليه وسلم لرحلة التغيير؟

أيها الإخوة الكرام: ما الذي أعده النبي صلى الله عليه وسلم لرحلة التغيير؟ هذه الرحلة المباركة التي نحتفل بها كل عام.

أولاً: دراسة الواقع قبل التحرك للتغيير، رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يخرج كما يظن البعض إلى المدينة هكذا، لكنه قبل ذلك هيئ المجتمع الجديد لتقبل الواقع الجديد، فبعث مصعب بن عمير رضي الله عنه مُقرئ المدينة وعالمها وسفير الإسلام الأول، بعثه إلى المدينة ليهيئ المسلمين هناك لاستقبال الواقع الجديد والدين الحميد.

بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية، كانت تهيئاً من نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم للمسلمين هناك، حتى إذا جاء استقبله الجميع، واستقبلوا دين الإسلام العظيم، لأنه درس الواقع.

اليوم كثيرٌ من الحركات التي لا تدرس الواقع، تريد أن تُغيّر من غير دراسة، تؤدي إلى نتائج كارثية، تبقى آثارها المُدمّرة عشرات السنين، لأنه لم يدرس الواقع، فلا بُدّ قبل أن تُغيّر أي شيء، حتى إذا كنت مديراً في شركة، وأردت أن تُغيّر موظفاً أن تستبدله وتأتي بأخر، أحياناً يستعجل يقول لك ساصرف الموظف، ثم يكتشف أن هذا الموظف يملك من الملفات الحساسة والأمور المهمة في الشركة، ما يجعله يعرقل مسيرة الشركة، هذا يُغيّر لكنه غير دون أن يدرس الواقع، فأدى تغييره إلى مشكلةٍ في الشركة لأشهرٍ معدودة.

التغيير دائماً أيها الكرام يحتاج أن تدرس الواقع، حتى إن أردت أن تُغيّر ضمن أسرتك، أو أن تُغيّر ضمن حيّك، أو ضمن المسجد، أو في أي مكان، انظر أين هم الناس، ابدأ بالأولويات، لا بُدّ من دراسة الواقع قبل البدء بالتغيير.

الأمر الثاني أيها الكرام: في ترتيبات النبي صلى الله عليه وسلم لرحلة التغيير، هي ترتيبات الرحلة نفسها، النبي صلى الله عليه وسلم ماذا صنع في رحلة الهجرة؟ أولاً جهّز الراحلة، ما قال أمشي واجِد من يحملني، جهّز راحلتين، كان أبو بكر رضي الله عنه قد جهّز راحلتين:

{ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الرُّبَيْرِ، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ لَا يُحْطِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْتِيَ بَيْتَ أَبِي بَكْرٍ أَحَدَ طَرَفَيْ التَّهَارِ، إِذَا بَكَرَ، وَإِنَّمَا عَشِيَّةً، حَتَّى إِذَا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي أُذِنَ فِيهِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْهَجْرَةِ، وَالْخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ مِنْ بَيْنِ طَهْرَتَيْ قَوْمِهِ، أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهَجْرَةِ، فِي سَاعَةٍ كَانَ لَا يَأْتِي فِيهَا، قَالَتْ: فَلَمَّا رَأَى أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: مَا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ السَّاعَةَ إِلَّا لِأَمْرٍ حَدَثَ. قَالَتْ: فَلَمَّا دَخَلَ، تَأَخَّرَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ عَنْ سَرِيرِهِ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَيْسَ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ إِلَّا أَنَا وَأُخْتِي أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَخْرِجْ عَنِّي مَنْ عِنْدَكَ"، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا هُمَا ابْنَتَايَ، وَمَا ذَاكَ؟ فِذَاكَ أَبِي وَأُمِّي! فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ آذَنَ لِي فِي الْخُرُوجِ وَالْهَجْرَةِ، قَالَتْ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصُّحْبَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الصُّحْبَةُ، قَالَتْ: فَوَاللَّهِ مَا سَعَرْتُ قَطُّ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ أَحَدًا يَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ، حَتَّى رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ يَبْكِي يَوْمَئِذٍ، ثُمَّ قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، إِنَّ هَاتَيْنِ رَاحِلَتَيْنِ قَدْ كُنْتُ أَعِدُّنَهُمَا لِهَذَا. فَاسْتَأْجَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُرْقُطٍ -رَجُلًا مِنْ بَنِي الدُّثَلِ بْنِ بَكْرٍ، وَكَانَتْ أُمُّهُ امْرَأَةً مِنْ بَنِي سَهْمٍ بْنِ عَمْرِو، وَكَانَ مُشْرِكًا- يَذُلُّهُمَا عَلَى الطَّرِيقِ، فَدَقَّعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، فَكَانَتَا عِنْدَهُ بَرَاغِمًا لِمِيعَادِهِمَا }

جَهَّزَ راحلتين أبو بكر، اشتراهما بثمان مئة درهم، وجعل يعلفهما ويهيئهما قبل أشهر، من أجل هذه الرحلة، فأعطى النبي هاتين الراحلتين لعبد الله بن أريقط وقال له: " إذا مضت ثلاث ليالٍ فأتبعنا إلى غار ثور"، الرحلة مَهْيَاة ليست عابرة، ليست فَمَ وانهض لنذهب معاً، هناك تهيئاتٍ لرحلة التغيير.

السَّريَّة التامة في رحلة الهجرة:

الأمر الثاني في الرحلة السَّريَّة التامة: (أَتَانَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْهَاجِرَةِ، فِي سَاعَةٍ كَانَ لَا يَأْنِي فِيهَا، قَالَتْ: فَلَمَّا رَأَى أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: مَا جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ السَّاعَةَ إِلَّا لِأَمْرٍ عَدَتْ. قَالَتْ: فَلَمَّا دَخَلَ، تَأَخَّرَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ عَنْ بَيْتِهِ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَيْسَ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ إِلَّا أَنَا وَأَخِي أَصْمَاءُ، بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَخْرِجْ عَنِّي مَنْ عِنْدَكَ") السَّريَّة التامة، استنحار الدليل، استأجر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عبد الله بن أريقط لأنه كان خبيراً بالطريق ليدله على الطريق، وما قال إِنَّ اللَّهَ يَهْدِينِي، وَاللَّهُ سَهْدِيهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَاللَّهُ يَهْدِينِي جَمِيعاً، لكن القَدَّرَ نَوْْمَ بِهِ لَكِنْ لَا نَحْتَاجُ بِهِ، الْيَوْمَ الْمُسْلِمُونَ يَحْتَاجُونَ بِالْقَدَّرِ، فَإِذَا وَقَعَ فِي مَعْصِيَةِ يَقُولُ لَكَ: اللَّهُ قَدَّرَ عَلَيَّ، نَحْنُ نَوْْمُ بِالْقَدَّرِ لَكِنْ لَا نَحْتَاجُ بِهِ عَلَى تَقْصِيرٍ وَقَعْنَا بِهِ، فَالِنَبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتَّخَذَ الْأَسْبَابَ، أَسْبَابٌ عَظِيمَةٌ، ثُمَّ أَمَرَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يَبْقَى فِي فِرَاشِهِ، لِيُطْنِ الْمَشْرُكُونَ أَنَّهُ مَا زَالَ فِي الْفِرَاشِ، ثُمَّ خَرَجَ مُتَخَفِياً مِنَ الْبَابِ الْخَلْفِيِّ، لَمْ يَخْرُجْ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ.

تروي الأخبار أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ خَرَجَ وَقَفَ وَقَالَ: " من أراد أن تنكله أمه فليتبعني خلف هذا الوادي"، أنا مُهاجر، فهل كان عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَشْجَعَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ لَا وَاللَّهِ:

{ كُنَّا إِذَا احْمَرَ الْبَاسُ، وَلَقِيَ الْغَوْمُ الْقَوْمَ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَا يَكُونُ مَنَّا أَحَدٌ أَذْنَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْهُ {
(أخرجه أحمد والنسائي في السنن الكبرى)

لشدَّة شجاعته، ولكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رحلة التغيير يُعَلِّمُنَا أَنْ نَتَّخِذَ الْأَسْبَابَ، موقف عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقفٌ شخصي، لكن موقف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موقفٌ تشريعيٍّ لأُمته إلى يوم القيامة، فافتحاح المخاطر ليس مطلوباً شرعاً.
كَلَّفَ أَبُو بَكْرٍ ابْنَهُ عَبْدِ اللَّهِ لِيَأْتِيَهُمَا بِالْأَخْبَارِ، كَانَ يَنْزِلُ إِلَى مَكَّةَ فِي النَّهَارِ وَيَسْمَعُ الْأَخْبَارَ، وَيَأْتِي فِي اللَّيْلِ لِيُخْبِرَهُمَا، ثُمَّ يَتَّبِعُهُ عَامِرُ بْنُ قُهَيْرَةَ لِيَمْحُو الْآثَارَ، حَتَّى لَا يَسْتَدِلُّوا عَلَى مَكَانِهِ، أَدَقَّ التَّفْصِيلَاتِ فِي رَحْلَةِ الْهَجْرَةِ كَانَتْ مِلَاحَظَةً مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَا قَالَ أَتَرَكَ الطَّعَامَ وَأَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، هَذَا لَيْسَ تَوَكُّلاً، كَلَّفَ أَصْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ ذَاتَ النِّطَاقِينَ أَنْ تَأْتِيَ لَهَا بِالطَّعَامِ، سَارَ مَسِيحاً، اخْتَارَ طَرِيقاً مُغَايِراً، النَّاسُ يَخْرُجُونَ شِمَالاً خَرَجَ إِلَى السَّاحِلِ جَنُوباً، وَاجْتِنَاءً فِي غَارِ ثَوْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى يَهْدَأَ الطَّلَبُ، كُلُّ هَذِهِ الْأَسْبَابِ اتَّخَذَهَا نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُعَلِّمُنَا أَنَّ هَذِهِ الرَّحْلَةَ هِيَ رَحْلَةُ الشُّنَنِ.

مقارنة بين رحلة الإسراء والمعراج ورحلة الهجرة:

مقارنة سريعة أُلِّهَ الْكَرَامَ بَيْنَ رَحْلَةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمَعْرَاجِ وَرَحْلَةِ الْهَجْرَةِ، الْإِسْرَاءُ وَالْمَعْرَاجُ مُعْجَزَةٌ، الْهَجْرَةُ وَفْقَ الشُّنَنِ الْكُونِيَّةِ، الْمَقَارَنَةُ بَيْنَهُمَا:
مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ أَرْبَعُمِئَةِ وَخَمْسُونَ كِيلُو مِتْراً، مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ آلَافُ الْكِيلُو مِتْرَاتٍ، ثُمَّ غُرُوجٌ إِلَى السَّمَاءِ مَسَافَاتٍ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ، رَحْلَةُ الْهَجْرَةِ أَرْبَعَةُ عَشَرَ يَوْماً فِي أَصْحَى الْأَقْوَالِ، رَحْلَةُ الْإِسْرَاءِ وَالْمَعْرَاجِ تَعْطَلُ فِيهَا الزَّمَنُ، هِيَ جُزْءٌ بَسِيطٌ مِنْ لَيْلَةٍ، رَحْلَةُ الْهَجْرَةِ أَعَدَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهَا رَاحِلَتَيْنِ، بَيْنَمَا رَحْلَةُ الْإِسْرَاءِ وَالْمَعْرَاجِ أَرْسَلَ اللَّهُ لَهُ الْبُرَاقَ، فَوُجِدَ نَفْسُهُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ ثُمَّ فِي السَّمَاءِ، تَعْطَلُ الْوَقْتُ تَعْطَلُ الزَّمَنُ كُلَّهُ، الْهَجْرَةُ تَمَّتْ وَفْقَ الشُّنَنِ الْكُونِيَّةِ، الْإِسْرَاءُ وَالْمَعْرَاجُ مُعْجَزَةٌ بِذَاتِهِ، لَكِنْ الْهَجْرَةُ كَانَتْ مُعْجَزَةً بِنَتَائِجِهَا، كَأَنَّ الْهَجْرَةَ تَقُولُ لِلْمُسْلِمِينَ: اصْنَعُوا فِي الْهَجْرَةِ الْمَعْجَزَةَ بِنَفْسِكُمْ، أَنْتُمْ اصْنَعُوا الْمَعْجَزَةَ.
لَقَدْ صَنَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْهَجْرَةِ مُعْجَزَةً عَظِيمَةً جَدّاً، وَفْقَ الْقَوَانِينِ وَالشُّنَنِ، لَكِنَّهُ سَلَكَ بِهَا الطَّرِيقَ الَّتِي شَرَعَهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَكَانَتْ حَرَكَةً مَدْرُوسَةً وَاعِيَةً، فَغَيَّرَتْ الْوَاقِعَ، وَبَتَّتْ دَوْلَةَ الْإِسْلَامِ الَّتِي مَا نَزَالَ نَنْعُمُ بِخَيْرَاتِهَا إِلَى لِحْظَتِنَا هَذِهِ، وَنَجَسَ فِي مَسَاجِدِ اللَّهِ، وَتُصَلِّيَ فِي بُيُوتِ اللَّهِ، بِبَرَكَةِ هَذِهِ الرَّحْلَةِ الْمُبَارَكَةِ، لِأَنَّهَا كَانَتْ حَرَكَةً مَدْرُوسَةً وَاعِيَةً.

الإسراء معجزةٌ خارج القوانين لكن في الهجرة اصنع المعجزة بنفسك:

أَيُّهَا الْإِخْوَةُ الْكَرَامَ: الْإِسْرَاءُ مُعْجَزَةٌ خَارِجُ الْقَوَانِينِ، نَحْنُ مُتَعَبِّدُونَ فِيهَا بِالتَّصْدِيقِ فَقَطْ، كَيْفَ يَتَعَبَّدُنَا اللَّهُ فِي الْإِسْرَاءِ وَالْمَعْرَاجِ؟ أَنْ تُصَدِّقَ:

{ لَمَّا أُسْرِىَّ بِالنَّبِيِّ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، أَصْبَحَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ بِذَلِكَ، فَارْتَدَّ نَاسٌ مِمَّنْ كَانُوا آمَنُوا بِهِ، وَصَدَّقُوهُ، وَ سَعَوْا بِذَلِكَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقَالُوا: هَلْ لَكَ إِلَى صَاحِبِكَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِىَّ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ قَالَ: أَوْ قَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: لَنْ كَانَ ذَلِكَ لَعْدَ صَدِّقٍ، قَالُوا: أَوْ تُصَدِّقُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَ جَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصَيِّحَ؟ قَالَ: نَعَمْ إِنِّي لَأُصَدِّقُهُ فِيمَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ، أُصَدِّقُهُ بِخَيْرِ السَّمَاءِ فِي عُدُوِّهِ أَوْ رَوْجِهِ، فَلِذَلِكَ سَمِّيَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقَ {
(أخرجه الحاكم والبيهقي)

إِذَا مَا فِي ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَكِنَّا مُتَعَبِّدُونَ فِي الْهَجْرَةِ لَيْسَ بِالتَّصْدِيقِ فَقَطْ، وَلَكِنْ بِالتَّطَبُّقِ الْعَمَلِي فِي الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَى رَبِّ الْأَرْبَابِ، فِي الْهَجْرَةِ اصْنَعِ الْمَعْجَزَةَ بِنَفْسِكَ، قُمْ، تَحَرَّكْ، اغْرِسْ بَذْرَةً فِي الْأَرْضِ ثُمَّ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ.

الأمر الأخير في الهجرة إليها الكرام، هو اليقين بالله وصدق التوكل عليه، أراد الله تعالى أن يصل المشركون بعد كل هذه الأسباب، أراد أن يصلوا إلى الغار، ليظهر توكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الله، قال أبو بكر رضي الله عنه:

{ قلت للنبي صلى الله عليه وسلم ونحن في الغار: لو أنَّ أحدهم ينظر إلى قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرْنَا نَحْتَ قَدَمَيْهِ، فقال: يا أبا بكر ما طَنُّكَ

بائنين الله ثالثهما {

(أخرجه البخاري ومسلم)

{ عن البراء بن عازب رضي الله عنه، من حديث الهجرة عن أبي بكر رضي الله عنه: فارتحلنا والقوم يطلبوننا فلم يدركنا أحد منهم غير سراقه

بن مالك بن جعشم على فرسٍ له، فقلت: هذا الطلب، قد لحقنا يا رسول الله، فقال: لا تحزن إنَّ الله معنا {

(متفق عليه)

لنعلم جميعاً أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بالأسباب تعبداً، ولكنه حاشاه لم يتوكل عليها، ولم يعتمد عليها، وإنما كان اعتماده على الله، وهذا الدرس نحن بحاجة في كل لحظة، في كل شأنٍ، الطالب يدرس ويجهد لكنه لا يعتمد على دراسته بل يعتمد على الله، خرجت في نزهة تفقد السيارة قبل أن تخرج، لكن لا تعتمد على ذلك، قل يا ربِّي سلِّمْ. مرض ابنك نسأل الله السلامة هذه إلى الطبيب واتباع التعليمات بدقة، ولكن إياك أن تظن أنَّ الطبيب يشفي، الله هو الشافي، هذا الدرس أن نأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، ونتوكل على الله وكأنها ليست بشيء، هو درس الهجرة الأعظم.

الدين منصوّر بك أو بغيرك فكُن أنت صاحب الشرف:

أيها الإخوة الكرام: في سورة التوبة نقرأ قوله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا
فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40)

(سورة التوبة)

متى نزلت سورة التوبة؟ في السنة التاسعة للهجرة، أي بعد الهجرة بتسع سنوات، وما زال القرآن يذكر الهجرة لأهميتها، ويُذكر من تقاعسوا عن نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، فيقول لهم: (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ) الدين منصوّر بك أو بغيرك، أنت إما أن تحوذ هذا الشرف وتكتب في لوحة الشرف، أو أن تترك ذلك فيأتي غيرك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَآ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَن يَبْخُلُ وَمَن يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا
يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38)

(سورة محمد)

كُن أنت صاحب الشرف، نحن لا ننصر رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحقيقة، نحن نتنصر به، نحن لا ننصر دين الله نحن نتنصر بدين الله، فحدّد موقعك أين أنت من نصرة دين الله؟ أمّا الدين فمنصوّر بي أو بغيري: (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ) أنتم اليوم عشرات الألوف إلى تبوك، والجر شديد، والمسافة طويلة (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ) لم يكن الإسلام إلا رجلين في الغار ونصره الله بغيركم (إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا).

حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن تُوزن عليكم، واعلموا أنَّ مَلَكَ الموت قد تخطَّأنا إلى غيرنا وسيخطئ غيرنا إلينا فلنتخذ حذرنا، الكيِّس من دان نفسه وعمل لِمَا بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمان، واستغفروا الله.

الحمد لله ربِّ العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وليُّ الصالحين، اللهم صلِّ وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

اللهم صلِّ على سيدنا محمدٍ وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمدٍ وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميدٌ مجيد.

الدعاء:

اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، إنك يا مولانا سميعٌ قريبٌ مجيبٌ للدعوات.

اللهم برحمتك غمَّنا، واكفنا اللهم شرَّ ما أهمنَّا وأغمَّنا، وعلى الإيمان الكامل والكتاب والسُّنة توقُّنا، نلقاك وأنت راضيٌ عنَّا، لا إله إلا أنت سبحانك إنَّنا كُنا من الظالمين، وأنت أرحم الراحمين.

وارزقنا اللهم حُسْنَ الخاتمة، واجعل أسعد أيامنا يوم نلقاك وأنت راضيٌ عنَّا، أنت حسينا عليك اتكالنا.

اللهم مُجري السحاب، مُنزل الكتاب، هازم الأحزاب، سريع الحساب، اهزم الصهاينة المُعتدين ومَن والاهم ومَن أيَّدهم ومن وقف معهم في سرٍّ أو علن.

اللهم أهلكنا في عرَّة، أهلكنا في فلسطين، أهلكنا في كل مكانٍ يُذكر فيه اسمك يا الله، نسألك إلهي أن ترحمهم وأن ترفع البلاء عنهم.

اللهم إنَّا نسألك أن تُطعم جائعهم وأن تكسو غريانهم وأن ترحم مُصابهم وأن تؤوي غريبهم، وأن تجعل لنا في ذلك عملاً مُتقبلاً وسهماً صالحاً، وأن تجعلنا في نصره دينك وكتابك وسُنَّة نبيِّك صلى الله عليه وسلم.

اللهم استعملنا ولا تستبدلنا، اللهم استعملنا ولا تستبدلنا، اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين، من عبادك المحسنين، اللهم ابسط أمانك وأمانك على بلادنا وبلاد المسلمين، ووقِّ القائمين عليها لما فيه مرضاتك، وللعمل بكتابك وسُنَّة نبيِّك صلى الله عليه وسلم، والحمد لله رب العالمين.